اِستثمارُ القيمةِ التَّعبيريَّةِ للحرفِ في التَّفسيرِ الإشاريّ عند ابنِ القيّمِ رحمه الله

The Investment of the Expressive Value of the Letter in the Sign Interpretation of Ibn Al Qayyim (May Allah Have Mercy on Him)

الدكتور: العيد حِذّيق

قسم الحضارة الإسلامية - معهد العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمَّة لخضر- الوادي(الجزائر)

Alaide1980@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/09/16 **تاريخ القبول: 2018/09/30**

ملخص:

هذا المقال بعنوان: **استثمار القيمة التعبيرية للحرف في التفسير الإشاري عند ابن القيم رحمه الله**؛ وهو يُعالجُ إشكاليَّةَ توظيف علماء الأمَّة الإسلاميَّة الموسوعيين - وابن القيّم رحمه الله نموذجٌ عنهم -، لعناصرَ غيرِ تقليديَّة في عمليَّة تفسير القرآن الكريم. وقد سلكتُ لمعالجة هذا الإشكال خطَّةً من مقدّمةٍ وثلاثة مطالب وخاتمةٍ. بيَّنتُ في المقدِّمةِ الإشكال الَّذي يطرحه الموضوع، وأهميته، والأهداف المرجوة من دراسته، والخطة المطروقة لمعالجته. أمَّا المقصد الأول؛ فكان لبيان المقصود من القيمة التعبيرية للحرف، فيما جعلنا المقصد الثَّانيَ لتحديد ماهية التفسير الإشاري، وضوابط الأخذ به، وكان المقصدُ الثَّالثُ تطبيقًا عمليًّا لاستثمارِ ابن القيم رحمه الله لهذه القيمة في التفسير. وقد توصَّلت في هذا البحث إلى نتائج أهمُّها: أنَّ لابن القيّم رحمه الله حِسًّا لُغويًّا دقيقًا؛ تنبَّه من خلاله لتوظيف عناصر تبدو لأول وهلةٍ بعيدةً عن التفسير. وأنَّ في التفسير الإشاريّ إلماحاتٍ هاديةً إذا كانت منضبطةً بالضوابطِ الشرعيَّةِ.

Abstract:

This article entitled "The Investment of the Expressive Value of the Letter in the Sign Interpretation" of Ibn Al Qayyim (May Allah Have Mercy on Him) deals with the issue of the use of non-traditional elements by the scholars of the Islamic Ummah (taking Ibn Al Qayyim as a model) in the process of interpreting the Holy Quran. To treat this issue , I have made a

plan of an introduction , three chapters, and a conclusion . In the introduction , I explain the problem that the subject poses, its importance , the aim of studying it , and the plan set to address it. The first chapter is to explain the meaning of the expressive value of the letter , while the second chapter is to determine what is the sign interpretation and he regulations of its acceptance. The third chapter is a practical application of Ibn Al Qayyim's (May Allah Have Mercy on Him) investment of this value in the process of interpretation. Through this research, I have reached some conclusions; most importantly :

Ibn Al Qayyim had a precise linguistic sensitivity through which he was alerted to the use of elements that ,at first glance, seem far from interpretation. Moreover, there are guiding allusions in the sign interpretation if they were regulated by the Shari'a rules.

key words: Ibn Al Qayyim, Expressive Value of the Letter, Sign Interpretation.

مُقدِّمةٌ

لا ريبَ أنَّ القُرآن الكريمَ، أنزله الله ربُّ العالمين، للتَّدبُّرِ والاتِّعاظ؛ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:29]، وهذا التَّدبُّرُ والاِتِّعاظُ آخرًا؛ إنَّما هو ثمرةٌ للفهم والتَّفسير أوَّلاً. قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ رحمه الله (ت:310ه): «إنِّي لأعجبُ مَمنْ قرأ القرآن ولم يعلَم تأويلَه، كيف يلتذُّ بقراءته؟»[1]. وليس هذا الفهمُ والتفسير كلاًّ مُباحًا لكلِّ أحدٍ؛ ولكن لا بدَّ من توفُّرِ شرائط من قبيل صحَّة الاعتقاد ولزوم السُّنَّةِ وسلامة القصد، واستكمال الأدوات التي منها العلم بلغة العرب التي بها نزل القرآن الكريم، ومعرفة النظائر في القرآن التي يفسر بعضها بعضًا، والعلم بالتفسير المنقول عن النبي ﷺ، وعن الصحابة الكرام، ومعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، وغيرها[2].

هذا وقد ظهر في علم تفسير القرآن الكريمِ نوعٌ يُسمَّى التَّفسير الإشاريَّ، اشتهر به طوائف من الصُّوفيَّة وأرباب السُّلوك؛ لا تتحقَّق في أغلبه الشَّرائطُ المشروطةُ، ولا يعتمدُ على الأدوات المطلوبة، وإنَّما ارتكازه على الإشارات التي يستشفُّها المُفسِّرُ من الآيات، وما يفتح الله عليه في معانيها من الإلهامات. وكان من جُملة العلماء الذين قاربوا موضوع التفسير الإشاريّ: ابنُ قيِّم الجوزيَّة رحمه الله (ت:751ه)، مستخدمًا في ذلك القيمة التعبيريَّة للحرف العربيّ.

- وعلى ذلك يُمكنُ أن نجعل التساؤل الرئيس الذي يدور عليه هذا المقال هو: هل التفسير الإشاريُّ يرجعُ إلى أدواتٍ مُعَيَّنةٍ لإدراكه، أم هو مُطلقٌ لمحض الخواطر والإلهامات؟ وتتفرَّعُ عن هذا التَّساؤل الرئيس أسئلةٌ جزئيَّةٌ هي: ما معنى القيمة التعبيريَّة للحرف؟ وما هو التفسير الإشاريُّ؟ وكيف وظَّف ابن القيِّم رحمه الله هذه القيمة في التَّفسير الإشاريّ؟

- ويكتسبُ هذا الموضوع أهمِّيَّته؛ من كونه مُحاولةً لبيانِ أنَّ التَّفسير الإشاريَّ - وإن كان يعتمدُ اعتمادًا كبيرًا على صدق النَّفس وصفاء الروح -، كغيره من أنواع التَّفسير، يفتقرُ إلى استكمال الأدوات لتحقيقه، وليس هو مجرَّد ظنونٍ وتخرُّصاتٍ، بل إنه يحتاجُ أحيانًا حتَّى إلى التَّجديد في الوسائل والأدوات، وعدم الجمود على الأدوات التقليدية، والدليل على ذلك ما وجدناه عند ابنِ قيِّمِ الجوزيَّة رحمه الله.

- والذي أهدِفُ إليه من وراء البحث أمران اثنان: الأوَّلُ التَّنويه بابن القيِّمِ رحمه الله بوصفه أحد أعلام القرن الثَّامن الهجريِّ اللذين تكلَّموا في التفسير الإشاريِّ كلامًا وَسَطًا مُنضبطًا، بعيدًا عن غُلوِّ أهل التَّصوُّفِ وشطحاتِ أرباب الطُّرُق. والآخرُ: بيانُ إمكانيَّة الإحالة في التَّفسير الإشاريِّ على ضوابط معياريَّة يُمكن القياسُ عليها والتَّثبُّتُ منها.

- وللوُصول إلى هذه الأهداف؛ فإنّي سلكتُ نظم المقال - بعد هذه المقدِّمة -، في ثلاثة مقاصد: بيَّنتُ في الأوَّل منها المقصود بالقيمة التعبيريَّة للحرف العربيِّ. وعرَّفتُ في الثَّاني بالتَّفسير الإشاريِّ وأمثلته وضوابط قبوله. فيما جعلتُ الثَّالث لبيانِ كيفيَّة استثمار ابن القيِّم رحمه الله في خدمة التَّفسير الإشاريِّ. وأردفتُ جميع ذلك بخاتمةٍ تحوي خُلاصَةَ ما توصَّلتُ إليه من نتائجَ.

المقصدُ الأوَّلُ: ما المقصود بالقيمة التَّعبيريَّة للحرف؟

الَّذي نعنيه بـ(القيمة التعبيريَّة للحرف)؛ أنَّ كُلَّ حرفٍ في اللُّغة العربيَّة هو ابتداءً صوتٌ، وهذا الصَّوتُ يُؤدِّي دلالة معنويَّةً محدَّدةً؛ فإذا كان هذا الصَّوت قويًّا؛ فإنه غالبًا سيشير إلى دلالة معنويَّة قويَّةٍ، وهكذا إذا كان الصَّوتُ ضعيفًا؛ فإنَّهُ سيؤدِّي في السِّياق الَّذي ورد فيه معنًى ضعيفًا.

وفي هذا الصَّدد يقول صبحي الصَّالح رحمه الله (ت:1407هـ=1987م): «أما الذي نريد الآن بيانه؛ فهو ما لاحظه علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، وما لَمَحُوهُ في الحرف

العربي من القيمة التعبيرية الموحية؛ إذ لم يعنهم من كلِّ حرفٍ أنه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرض، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوالّ المعبرة، كل حرف منها يستقلّ ببيان معنًى خاصٍّ ما دام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع؛ إذ كان لكل حرفٍ صدًى وإيقاع».[3]

ولعلَّ من أوائل علماء اللُّغة الَّذين تنبَّهُوا لهذه القضيَّة، ونوَّهُوا بها: ابن جِنّي رحمه الله (ت:392هـ)، الَّذي عقد فُصولا في كتابه (الخصائص) من قبيل (بابٌ في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)؛ أي تقارب الألفاظ لتقارب المعاني[4]، و(بابٌ في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) تُنِمُّ في مُجملها عن إدراكٍ سابقٍ للمسألة، وإن كان هو كذلك صرَّح باستفادتها من إمامي الصِّناعة من قبلُ؛ الخليل ابن أحمد (ت:170هـ) وتلميذه سيبويه (ت:180هـ) رحمهما الله.

وممَّا مَثَّل به لهذه المسألة؛ «قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:83]، أي: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى (تهزّهم هزًّا)، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصُّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك. ومنه العَسْف والأسَف، والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين، كما أن أسف النفس أغلظ من "التردد" بالعسف. فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين».[5]

ومبنى القضيَّة - على ما أسلفنا -، على أنَّ حروف اللُّغة العربيَّة منها قويٌّ ومنها ضعيفٌ، وهذا التَّصنيفُ راجعٌ إلى عدد صفات القوَّة في كلِّ حرفٍ؛ إذ صفاتُ الحروف - على ما هو شائعٌ عند أهل التَّجويد -، ثلاثة أقسامٍ:

1 - صفات قوية وهي إحدى عشرة صفة هي: الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والصفير والقلقلة والتكرار والانحراف والتفشي والاستطالة والغنة.

2 - وصفات ضعيفة وهي ستُّ صفاتٍ هي: الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح واللين والخفاء.

3 – والقسم الثَّالث: صفات لا تُوصف بقوة ولا ضعف فهي متوسطة، وهي ثلاثٌ هي: الإصمات، والإذلاق، والتوسط.

وقد نظمها بعضهم فقال:

ضعيفُها همسٌ ورخوٌ وخَفَا * لِينٌ انفتاحٌ واستفالٌ عُرِفا

وما سواها وصفه بالقوَّة * لا الذَّلْق والإصماتِ والبينيَّة

فإذا كانت كل صفات الحرف قوية أو أغلبها؛ فهو قويٌّ (وأقوى حرف في اللغة الطاء لأن كل صفاته صفاتُ قوة)، وإذا كانت كل صفات الحرف أو أغلبها صفات ضعف؛ فهو ضعيف (وأضعف حرف في اللغة الهاءُ لجمعه صفات الضعف كلها)، وما جمع بين صفات القوة والضعف كان متوسطا (كالغين واللام)[6].

ومعنى (القيمة التعبيريَّة للحرف) على هذا التَّأصيل؛ أن يُقابلَ بين صفات الحرف قوَّةً وضعفًا، وبين المعنى الَّذي يُؤدِّيه؛ فالحرف ذو الصِّفة القويَّة، يُؤدِّي معنًى قويًّا، كما أن الحرف ذا الصِّفة الضَّعيفة يُؤدِّي معنًى ضعيفًا. قال ابنُ جني رحمه الله (ت:392هـ): «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث؛ فباب عظيم واسع، ونهج ملْتَئِبٌ عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره.

من ذلك قولهم: خضم وقضم؛ فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك. وفي الخبر: (قد يدرك الخضم بالقضم)، أي: قد يدرك الرخاء بالشدة، واللين بالشظف. وعليه قول أبي الدرداء: (يخضمون ونقضم، والموعد الله). فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

ومن ذلك قولهم: النَّضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فجعلوا الحاء لرقَّتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه»[7].

واستنادًا على هذا التَّأصيل، فإنَّ القيمة التَّعبيريَّة للحرف هي: التَّناسبُ بين مخرج الحرف وصفاته الذَّاتيَّة والعارضة، وبين المعاني التي يُؤدِّيها الحرفُ إفرادًا وتركيبًا.

المقصدُ الثَّاني: ماهيَّة التَّفسير الإشاريّ وضوابط الأخذ به

لا بُدَّ لنا ههنا أن نعرِّج على شيئين اثنين: أوَّلهما بيان المقصود من التفسير الإشاريّ، ولكونه يُمثل خُروجًا عن مُقتضى الظاهر في التفسير، فقد تنازع فيه أهل الشَّأن أخذًا وردًّا، ولذلك لزم إتباعُ القضيَّة الأولى بأخرى تُبيِّنُ ضوابط الأخذ به، وبيانهما على النَّحو الآتي:

الفرع الأول: تعريف التَّفسير الإشاريّ وأصل مشروعيته

لعلَّ أوَّلَ ما ينقدحُ في ذهن الباحث في الدِّراسات القرآنيَّة عند ذكر (التَّفسير الإشاريِّ)، التَّفاسيرُ الباطلةُ التي غالى فيها طوائفُ من الصُّوفيَّة في تأويل كتاب الله ﷻ على غير ما يحتملُ، ويَغفَلُ عن حقيقة أنَّ هذا النَّوع من التَّفسيرِ كغيره، فيه المقبول وفيه المردود، ورحم الله مالكًا (ت:179ه) إذ يقول: (كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه وَيُتْرَكُ، إِلاَّ صَاحِبَ هَذَا القَبْرِ ﷺ)[8]، لذلك؛ فإنَّا سنركِّزُ في هذا المقصد على تعريف التفسير الإشاري، ونشير إلى أصل مشروعيته، ويأتي في خلال ذلك ذكرُ أمثلة له. وهذا إجمالٌ تفصيله كالآتي:

- أوَّلاً: تعريفه:

تكادُ تجتمعُ كلمة مَنْ كتب عن (التَّفسير الإشاريّ) أنَّ المقصود به: تأويل القرآن بغير ظاهره، لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد[9].

قال السُّيوطيُّ رحمه الله (ت:911ه) في هذا الصَّدد: «وقال الشيخ تاج الدين بن عَطَاءِ اللَّهِ، فِي كِتَابِهِ (لَطَائِفُ الْمِنَنِ): "اعْلَمْ أَنَّ تَفْسِيرَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ بِالْمَعَانِي الْعَرَبِيَّةِ، لَيْسَ إِحَالَةً لِلظَّاهِرِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةَ مَفْهُومٌ مِنْهُ مَا جُلِبَتِ الْآيَةَ لَهُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ فِي عُرْفِ اللِّسَانِ، وَثَمَّ أَفْهَامٌ بَاطِنَةٌ تُفْهَمُ عِنْدَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ لِمَنْ فَتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ)، فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ تَلَقِّي هَذِهِ المعاني منهم: أن يَقُولَ لَكَ ذُو جَدَلٍ وَمُعَارِضَةٍ: هَذَا إِحَالَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِحَالَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ إِحَالَةً لَوْ قَالُوا: لَا

مَعْنَى لِلْآيَةِ إِلَّا هَذَا، وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ، بل يُقِرُّون الظَّوَاهِرَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا مُرَادًا بِهَا مَوْضُوعَاتُهَا، وَيَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ما أفهمهم»[10].

فَإذا استظهرنا تفسير قول الله ﷻ: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:79]، على سبيل المثال، وجدنا المعنى الظَّاهر دائرًا بين (اللوح المحفوظ) و(المُصحف)[11]، فإذا قال قائلٌ: «(كَمَا أَنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، الَّذِي كُتِبَ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ؛ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا بَدَنٌ طَاهِرٌ؛ فَمَعَانِي الْقُرْآنِ لَا يَذُوقُهَا إِلَّا الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ، وَهِيَ قُلُوبُ الْمُتَّقِينَ)؛ كَانَ هَذَا مَعْنًى صَحِيحًا وَاعْتِبَارًا صَحِيحًا، وَلِهَذَا يُرْوَى هَذَا عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ [...] وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا جُنُبٌ)؛ فَاعْتَبَرَ بِذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَدْخُلُهُ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ؛ إذَا كَانَ فِيهِ مَا يُنَجِّسُهُ مِنْ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ؛ فَقَدْ أَصَابَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[المائدة:41]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[الأعراف:146] وَأَمْثَالَ ذَلِكَ»[12].

وقريبٌ من هذا، تفسير قول الله ﷻ: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾[العاديات:2]؛ فإنَّ المشهور الظَّاهر في تفسيرها: أنَّها الخيلُ التي أُجريت في سبيل الله، فاصطكَّت حوافرها بالصَّخر حتَّى أوْرَت نارًا[13]. لكنَّ ابن القيّم رحمه الله (ت:751ه) أورد أقوالاً أخرى في تفسير (المُوريات) وضعَّفها، إلاَّ إن كانت من قبيل القياس والإشارة. قال رحمه الله: «وقال قتادة: "الموريات" هي الخيلُ؛ تُورِي نارَ العداوة بين المُقْتَتِلين". وهذا ليس بشيء، وهو بعيدٌ من معنى الآية وسياقها. وأضعف منه قول عكرمة: "هي الألسنةُ؛ تُورِي نارَ العداوة بِعِظَم ما تتكلَّم به". وأضعف منه ما ذكر عن مجاهد: "هي أفكار الرجال؛ تُورِي نارَ المكر والخديعة في الحرب".

وهذه الأقوال إن أُريد بها أنَّ اللفظَ دلَّ عليها وأنَّها هي المراد؛ فَغَلَطٌ، وإن أُريد أنَّها أُخِذت من طريق الإشارة والقياس؛ فأمرها قريبٌ»[14].

وهذه الأقوال التي ضعَّف ابنُ القيم رحمه الله في الآية، ولم يعتبرها إلا من قبيل الإشارة؛ قد ارتضاها من قبلُ ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310ه)، وجعلها من الدلالات العامَّة التي يحتملها اللَّفظ، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالموريات التي توري النيران قدحا؛ فالخيل توري بحوافرها، والناس يورونها بالزند، واللسان - مثلا - يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر - مثلا -، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها: إذا

التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعض دون بعض فكل ما أورت النار قدحا، فداخلة فيما أقسم به، لعموم ذلك بالظاهر»[15].

- ثانيًا: أصل مشروعيَّته:

لعلَّ المُتأمِّلَ في نُصوص السُّنَّة النَّبويَّة الَّتي لها علاقةٌ بتفسير القرآن العظيم، تظهر له منها بعضُ الإشارات الدَّالَّة في مُجملها على مشروعيَّة هذا النَّوع من التَّفسير.

ومن هذه النُّصوص ما روى البخاريُّ رحمه الله (ت:256ه) في (الصحيح)، من حديث «ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[16].

والَّذي فهمه عامَّة الصَّحابة من الآية هو ظاهرها؛ وهو أنَّ الله ﷻ أمرهم إذا فتَح عليهم، بتسبيحه وحمده واستغفاره، ولكنَّ عُمَرَ وابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، ذهبا بها إلى أبعد من ذلك، وهو ما تُشيرُ إليه الآيةُ من الدلالة على أجل النبيِّ ﷺ[17]؛ إذ «أمره تعالى، بعد أن بذل المجهود فيما كُلِّفَ به من تبليغ الرسالة ومجاهدة أعداء الدين؛ بالإقبال على التسبيح والاستغفار، والتَّأَهُّبِ للمسير إلى المقامات العليا، واللُّحوق بالرفيق الأعلى، وهذا المعنى هو الذي فهمه منها ابن عباس ﷺ، حتى ردَّ به على أولئك المشايخ، وقال: أجل رسول الله ﷺ، وصَدَّقَهُ عمر فيما قال، قال عمر: (ما أعلم منها إلا ما تعلم). وروي أن عمر لمَّا سمعها بكى وقال: الكمال دليل الزوال»[18].

قال الحافظُ ابن حجرٍ رحمه الله (ت:852ه) في (الفتح) عند ذكر فوائد هذا الحديث: «وَفِيهِ جَوَازُ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِمَا يُفْهَمُ مِنَ الْإِشَارَاتِ، وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: (أَوْ فَهْمًا يؤتيه الله رجلا فِي الْقُرْآن)»[19].

وهذا الَّذي أشار إليه الحافظُ رحمه الله؛ قد قرَّره من قبلُ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رحمه الله (ت728ه) إذ يقول: «وَأَمَّا (الْعِلْمُ اللَّدُنِيُّ)؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، بِسَبَبِ طَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُهُ، وَاتِّبَاعِهِمْ مَا يُحِبُّهُ، مَا لَا يَفْتَحُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: (إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ). وَفِي الْأَثَرِ: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ؛ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[النساء:66-68]، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ يَهْدِيهِ اللَّهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[المائدة:16]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:17]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف:13]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:2]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية:20]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:203]»[20].

فلا يَعْدَمُ - على ذلك - التَّفسير الإشاريُّ من إلماحةٍ لأصل مشروعيَّته في السُّنَّة النَّبويَّة، وعملِ السَّلَفِ الصَّالحين.

ثانيا: ضوابط الأخذ بالتَّفسير الإشاريّ (صحَّته)

وضع أهل العلم بالقرآن وتفسيره ضوابط لقبول هذا اللون من التفسير؛ وممَّن بيَّنَها ابنُ القيِّم رحمه الله (ت:751ه) في استطرادٍ له في بيان أنواع التفسير إذ يقول: «وتفسير النَّاس يدور على ثلاثة أصول: تفسيرٌ على اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسيرٌ على المعنى، وهو الذي يذكره السلف. وتفسيرٌ على الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

1 - أن لا يناقض معنى الآية.

2 - وأن يكون معنىً صحيحًا في نفسه.

3 - وأن يكون في اللفظ إشعارٌ به.

4 - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباطٌ وتلازُمٌ.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا»[21].

وقد قرَّبَ هذه الشُّروطَ من بعدُ بعبارةٍ أسهل محمد حسين الذَّهبي رحمه الله (ت:1398ه) فقال: «وإليك هذه الشروط:

أولاً: أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآنيُّ الكريم.

ثانياً: أن يكون له شاهد شرعيٌّ يؤيده.

ثالثاً: أن لا يكون له معارض شرعي أو عقليٌّ [...]

رابعاً: أن لا يُدَّعى أن التفسير الإشاريَّ هو المراد وحده دون الظاهر، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولاً، إذ لا يُطمَعُ في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ "ومَن ادّعى فهم أسرار القرآن ولم يُحكم التفسير الظاهر؛ فهو كمن ادَّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب"»[22].

والجديرُ بالتَّنبيه عند سياق هذه الشُّروط للتَّفسير الإشاريِّ، أنَّها «شروطٌ لقبوله؛ بمعنى عدم رفضه فحسب، وليست شروطا لوجوب اتباعه والأخذ به؛ ذلك لأنه لا يتنافى وظاهرَ القرآن، ثم إن له شاهدا يعضده من الشرع، وكل ما كان كذلك لا يرفض، وإنما لم يجب الأخذ به؛ لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه، بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها غيرَ منضبطةٍ بلغة، ولا مقيدةً بقوانينَ»[23].

ولعلَّ من المُفيدِ في هذا المقام؛ تطبيقَ هذه الشُّروط على مثالين اثنين؛ أحدهما من قبيل التَّفسير الإشاريِّ المردود، والآخر من التفسير الإشاريِّ المقبول، حتَّى نقف عمليًّا على توقُّف قبول التفسير وردِّه على هذه الشُّروط.

- **المثال الأوَّل:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:69]، بجعل (لَمَعَ) فعلاً ماضيًا بمعنى (أضاءَ)، و(المُحسنين) مفعوله، والمعنى على ذلك، (إن الله أضاء وجوه المحسنين). وهذا تلاعبٌ بالقرآن العظيم، وانحرافٌ بنظمه العربيّ المُبين[24]؛ إذ الصَّحيح في تفسير الآية: أنَّ اللام للتوكيد، و(مع) اسمٌ أو حرفٌ[25]، والمعنى: توكيد معيَّة الله ﷻ بالنُّصرة والتَّأييد لعباده المحسنين نظير إحسانهم[26].

ومثله في البعد؛ تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:255]، بالقول (مَنْ ذلَّ) من الذُّلِّ؛ أي مَن أذلَّ، (ذي) إشارةٌ إلى النفس، (يَشْفَ) من الشفاء؛ جواب الشَّرط (غُ) فعلُ أمرٍ من الوعي، أي: عُوا هذا الأمر وافهموه[27].

ولا يخفى ما فيه كذلك من تحريف الكلم عن مواضعه، وحمل نظم الكلام على غيرِ ما هو عليه.

- **المثال الآخر:** ما جاء في (روح المعاني) للألوسيّ رحمه الله (ت:1270ه) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:63]، قال: «من باب الإشارة والتأويل في الآية: (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ) المأخوذ بدلائل العقل بتوحيد الأفعال والصفات، (ورفعنا فوقكم) طور الدماغ للتمكن من فهم المعاني وقبولها، أو أشار سبحانه بـ(الطور) إلى موسى القلب، وبـ(رفعه) إلى علوه واستيلائه في جو الإرشاد، وقلنا (خُذُوا) أي اقبلوا ما آتَيْناكُمْ من كتاب العقل الفرقاني بجد، وعوا ما فيه من الحكم والمعارف والعلوم والشرائع لكي تتقوا الشرك والجهل والفسق، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك، فلولا حكمة الله تعالى بإمهاله وحكمه بإفضاله لعاجلتكم العقوبة ولحل بكم عظيم المصيبة.

إِلَى اللهِ يُدْعَى بالبراهينِ مَنْ أَبَى * فإنْ لم يُجِبْ بَادَتْه بِيضُ الصَّوَارِمِ»[28].

فما ساق الألوسيُّ رحمه الله (ت:1270ه) عقب تفسير هذه الآية، ممَّا يُمكنُ التَّمثيلُ به للتَّفسير الإشاريِّ المقبول؛ كونه مُستجمعًا للشُّروطِ؛ إذ لا يُخالفُ ما أورده النظم القرآنيَّ، كما أن المعانيَ التي استنبطها من الآية يُوجد ما يشهد لها في نصوص الشرع، إضافةً إلى أنه لم يدَّعِ أنَّ هذه الإشارات تفسير للآية، بدليل أنه فسَّرها أوَّلاً، ثمَّ أعقبها بذكر هذه الإشارات.

المقصدُ الثَّالثُ: توظيفُ ابن القيِّمِ رحمه الله للقيمة التَّعبيريَّة للحرف في التَّفسير

مِنْ أجلِّ أهل العلمِ بالتَّفسير؛ ابنُ قيِّم الجوزيَّة رحمه الله (ت:751ه)، وقد عرفنا في المقصدين الأوَّلين معنى القيمة التعبيريَّة للحرف، وماهيَّة التَّفسير الإشاريِّ، وآن لنا في هذا المقصد، أن نعرف من هو ابن القيِّم رحمه الله؟ وما مكانته في التَّفسير؟ وكيف وظَّفَ القيمةَ التعبيريَّة للحرف العربيّ في التَّفسير الإشاريِّ؟ وهذا إجمالٌ تفصيلُهُ كالآتي:

أولاً: ابن القيّم رحمه الله ومكانته في التَّفسير

1- ابنُ القيّمِ رحمه الله هو: مُحَمَّد بن أبي بكر بن أَيُّوب بن سعد بن حريز الزرعي الدِّمَشْقِي[29]. لقبُهُ شمس الدِّين، وكنيته أبو عبد الله، وشُهرته ابْن قيم الجوزية. والجوزيَّة مدرسةٌ للحنابلة بدمشق كان أبوه أبو بكر قيّمًا عليها ومُدرّسًا بها؛ فأُطلِق عليه: قيّمُ الجوزيَّة، ومُتَرجَمُنا ابنُه؛ فهو ابنُ قيّم الجوزيَّة[30].

أثنى عليه غالبُ علماء عصره بالعلم والسَّمتِ والعبادة؛ فممَّا قالهُ فيه تلميذه ابنُ كثيرٍ رحمه الله (ت:774ه): «وُلِدَ فِي سِنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَاشْتَغَلَ بالعلم، وبرع في العلوم المتعددة، لَا سِيَّمَا عِلْمُ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْأَصْلَيْنِ [...]فَصَارَ فَرِيدًا فِي بَابِهِ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ، مَعَ كَثْرَةِ الطَّلَبِ لَيْلًا ونهاراً، وكثرة الابتهال. وَكَانَ حَسَنَ الْقِرَاءَةِ وَالْخُلُقِ، كَثِيرَ التَّوَدُّدِ لَا يَحْسُدُ أَحَدًا وَلَا يُؤْذِيهِ، وَلَا يَسْتَعِيبُهُ وَلَا يَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ، وَكُنْتُ مِنْ أَصْحَبِ النَّاسِ له وأحب إليه، ولا أعرف في هذا العالم فِي زَمَانِنَا أَكْثَرَ عِبَادَةً مِنْهُ [...] وَلَهُ مِنَ التصانيف الكبار والصغار شيءٌ كَثِيرٌ، وَكَتَبَ بِخَطِّهِ الْحَسَنِ شَيْئًا كَثِيرًا، وَاقْتَنَى مِنَ الْكُتُبِ مَا لَا يَتَهَيَّأُ لِغَيْرِهِ تَحْصِيلُ عُشْرِهِ مِنْ كُتُبِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ»[31].

ومع جلالة هذه الأوصاف التي وُصِفَ بها ابنُ القيّم رحمه الله؛ فإنَّه لم يَسْلم من طعنٍ من مُعاصريه، فهذا الذَّهبيُّ رحمه الله (ت:748ه) يقول عنه في (المعجم المُختصّ): «سَمِعَ مَعِي مِنْ جَمَاعَةٍ، وَتَصَدَّرَ لِلاشْتِغَالِ وَنَشْرِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّهُ مُعْجَبٌ بِرَأْيِهِ جَرِيءٌ عَلَى الأُمُورِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ»[32]. ولا يخفى ما في عبارة الذهبي رحمه الله هذه من أثر المعاصرة، والاقتران في العلم، لذلك تعامل الإمامُ الشوكانيُّ رحمه الله (ت:1270ه) معها بقاعدة أهل العلم: (كلام الأقران يُطوى ولا يُروى)، وردَّ كلامَ الذَّهبيّ رحمه الله بقوله: «قلتُ: بل كَانَ متقيدا بالأدلة الصَّحِيحَة، معجبا بِالْعَمَلِ بهَا، غيرَ مُعَوّلٍ على الرَّأْي، صادعًا بِالْحَقِّ، لَا يُحابي فِيهِ أحدا، ونِعمتِ الجرأةُ»[33].

2- وأمَّا عن مكانته في التَّفسير، ومعرفته بإشارات أرباب السُّلوك والتعبير؛ فيقول الدَّاوديُّ رحمه الله (ت:945ه) في (طبقات المفسرين): «وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، [...] وكان عالما بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطُّولَى. وكان ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته»[34].

فجمع له بين وصفين، وهذا ما يعنينا في هذا المقام؛ وهما: (كونه عالمًا بالتفسير لا يُجارى فيه، وعالمًا بعلم السُّلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم).

كما وصفه من قبلُ تِلميذهُ ابنُ رجبٍ رحمه الله (ت:795ه) بقوله: «الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف، شمس الدين أَبُو عَبْد اللَّهِ بْن قيم الجوزية، شيخنا. ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة»[35].

وعلى ذلك؛ فإنَّ اختيارَنا وقع على ابن القيّم رحمه الله، لكونه جامعًا بين العلم بالتَّفسير، والعلم بالدَّقائق والإشارات. قال ابن رجب رحمه الله (ت:795ه) لمَّا ذكر أذيَّة الإمام ابن القيم رحمه الله وحبسه في السجن مع شيخه ابن تيمية رحمه الله (ت:728ه): «وَكَانَ فِي مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، فَفُتِحَ عَلَيْهِ من ذَلِكَ خير كثير، وحصل لَهُ جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذَلِكَ عَلَى الْكَلام فِي علوم أهل المعارف، والدخول فِي غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بِذَلِكَ»[36]. وقد تجلَّى ذلك في استثماره في القيمة التعبيرية للحرف العربيّ في بيان شيءٍ من معاني القرآن الكريم التي تندرجُ في التفسير الإشاري، من خلال مظهرين اثنين، هما: مخارج الحروف وصفاتها، وبيانهما في القضيتين التالتين.

على أنَّنا ننبّه – قبل الخوض فيهما – على أنَّ ابن القيّم رحمه الله رغم مكانته الجليلة في علم التفسير؛ فإنه لم يُفرِدْ مُصنَّفًا في التفسير، وإنما مادَّةُ التفسير عنده مبثوثةٌ في سائر مُؤلَّفاته.

وقد حاول بعضُ أهل العلم استخلاصها وإفرادها في كتابٍ؛ فكان أول ذلك ما قام به محمد أويس الندوي رحمه الله (ت:) في أربعينات القرن الماضي (1948م) من جمعٍ لشيءٍ ممَّا فسَّر ابنُ القيّم رحمه الله في مُختلف مؤلفاته، وجعله في كتابٍ سمَّاه: (التفسير القيم لابن القيم) في نحو 650 صفحةً[37].

ثمَّ حاول هذا الصنيع كذلك الشيخ علي بن حمد بن محمد الصالحي رحمه الله (ت:1415ه)، فكان عملُه أوسع مما في (التفسير القيم)؛ إذ مكث في عمله قُرابة الخمسة عشر سنةً، وسمَّاه: (الضوء المنير على التفسير)، وقد وقع في ست مجلدات كبيرة، فيما يربو عن 3000 صفحةٍ[38].

كما ظهر جمعٌ ثالثٌ لما فسَّر ابنُ القيِّم رحمه الله في عملٍ ليسري السيد محمد، راجعه له ونسَّق مادته صالح أحمد الشامي، وسمَّاه: (بدائع التفسير؛ الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية)، ويقع في ثلاث مجلدات، تربو عن 1400 صفحةٍ[39].

ولا يخفى - على ذلك -، أنَّ أوسع عملٍ استوعب جُهدَ ابن القيم التفسيريَّ، هو (الضوء المنير على التفسير).

ثانيًا: استثمارُ ابنِ القيم في باب مخارج الحروف في التَّفسير الإشاريّ

القيمة التعبيريَّة للحرفِ العربيّ - كما بيَّنَّا في المقصد الأول -، مُستَمَدَّةٌ من شيئين: الأوَّل مخارج الحروف، والآخرُ صِفاتُها، وسنُبيّنُ في هذا الموضع من البحث القضيَّةَ الأولى؛ وهي استثمارُ ابنِ القيِّم رحمه الله (ت:751هـ) في باب مخارج الحروفِ، والإشارات التفسيريَّة التي اقتبسها منها، وتقريبُ ذلك بالمثال الآتي:

- الحروف المُقَطَّعة فواتحُ السُّور، وعلاقتها بمعاني السُّورِ المُفتتَحةِ بها؛ إذ نجدُ في هذ الصَّدد أنَّ ابنَ قيِّمِ الجوزيَّة رحمه الله ربط بينهما ربطًا عجيبًا، لا يتَّفق إلاَّ لقلائل من أهل العلم، بدليل أنَّك لا تكادُ تجد هذه الإشارات عند غيره رحمه الله، وممَّا قاله في هذا: «تأمل سر ﴿الم﴾ كيف اشتملتْ على هذه الأحرف الثلاثة، فالألفُ إذا بُدِئَ بها أولًا كانت همزةً، وهي أوَّل المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجُها من الفَمِ، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني: الحَلْقَ واللِّسان والشَّفَتَيْنِ، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية.

فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرَّعُ منها ستة عشر مخرجًا، فيصيرُ منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدارُ كلامِ الأمم الأوَّلين والآخرين، مع تضمُّنها سرًّا عجيبًا، وهو: أن الألف البداية واللام التوسط والميم النهاية، فاشتملتِ الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكلّ سورة استُفتحتْ بهذه الأحرف الثلاثة، فهي مشتملة على بَدء الخلق ونهايته وتوسُّطه، فمشتملةٌ على تخليقِ العالم، وغايَتهِ، وعلى التَّوَسُّط بين البداية والنهاية من التَّشريع والأوامر، فتأمَّلْ ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم»[40].

هذا المثالُ الَّذي نقلنا عن ابنِ القيّم رحمه الله، يربطُ فيه بين السُّور المُفتتحة بـ﴿ألَمّ﴾، وبين المعاني المُتَضمَّنَة في هذه السُّور. والعلاقةُ الَّتي بيَّنها رحمه الله: أنَّ هذه الأحرف الثَّلاثةَ من جهة مخارجها، تُمثِّلُ أوَّل جهاز النُّطق في الإنسان، ووسطه ومُنتهاه؛ فالهمزة من أقصى الحلقِ، وهو مُبتَدأُ المخارج، والميم من الشَّفتين، وهي آخرُ المخارج، واللاَّم من حافَّة اللسان، واللِّسانُ مُتوسِّطٌ بين مخرجي الحلق والشَّفتين. فكلُّ سُورةٍ تبدأ بهذه الأحرف الثَّلاثة؛ فلا بُدَّ فيها من ذكر بدءِ الخلق ونشوء العالم، والإشارة إلى هذا بحرف الهمزة الذي مخرجه مبدأ المخارج، كما يُذكَرُ فيها مآل الخلق وغاية العالم، والإشارة إلى هذا بحرف الميم الذي مخرجه آخر المخارج وهو الشفتان. كما يُذكرُ فيها ما يتوسَّطُ بدءَ الخلق ونهايته من التشريعات والأحكام التي تجري على المُكَلَّفِ خلال حياته المتوسطة بين مبدئه ومولده وبين نهايته ووفاته، والإشارة إلى هذا بحرف اللام الذي مخرجه اللسان وهو وسطٌ بين المخارج.

ولعلَّ المُتلقِّيَ يرتابُ في قبولِ هذا الطَّرح، فيدعوه ابنُ القيَّمِ رحمه الله إلى التَّحقُّقِ من هذا التَّأصيل النَّظريّ بتطبيق عمليٍّ على السُّور المُفتتحة بـ﴿ألَمّ﴾؛ ولنختبر ذلك في سورتي البقرة والروم على سبيل المثال.

- **المثالُ الأوَّلُ: سُورة البقرة**؛ فإنَّكَ واجدٌ في أوائلِها قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:28-29]، مع قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:30] وما بعدها من الآيات؛ وفيها التحدث عن قدرة الله عز وجل، ببدء الخليقة وتكريم آدم أبي البشر بسجود الملائكة له، وترتيب المولى ما حدث معه وزوجه في الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض، والإشارة إلى هذا بحرف الهمزة الذي مخرجُهُ أوَّلُ المخارج.

كما أنَّها خُتِمت بالتَّذكير بالتوبة والإنابة إلى الله ﷻ، التي هي مآل الإنسان ومصيره إليه، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:281]، وإلى هذا الإشارة بحرف الميم، الذي مخرجه الشفتان، وهما آخر المخارج.

وبين ذلك ذِكرُ أصولِ التشريعِ الإسلامي للمؤمنين به، في نطاق العبادات والمعاملات، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد في سبيل الله وتنظيم أحكام القتال، واعتماد الأشهر القمرية في التوقيت الديني، والإنفاق في سبيل الله، لأنه وسيلة للوقاية من الهلاك، والوصية للوالدين والأقربين، وبيان مستحقي النفقات، ومعاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة، وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والرضاع والعدة، والإيلاء من النساء، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو، وتحريم السحر، والقتل بغير حق وإيجاب القصاص في القتلى، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، وتحريم الخمر والميسر والربا، وإتيان النساء في المحيض وفي غير مكان الحرث وإنجاب النسل، أي في الدبر[41]، وغيرها من التشريعات والأحكام التي تستغرق حياة المُكَلَّفِ المتوسطة بين مبدئه ومنتهاه، وإلى هذا الإشارة باللَّام الذي مخرجه اللسان، وهو أوسط المخارج.

- **المثال الثاني: سُورة الرُّوم**؛ فإنَّ فيها كذلك ذكر بدء الخلق في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الروم:11]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الروم:27].

وكذلك فيها ذكر ما يتوسَّط بين ذلك من التشريعات والأحكام؛ سواءٌ في ذلك الأمر بالتزام شرع الله كلِّه؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[الروم:30]، وقوله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾[الروم:43]، أو الأمرُ بالتزام تفاصيل الشرع وتكاليفه، من مثل قوله سبحانه: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم:38-39].

كما أن فيها ذكرًا لعاقبة الأمر ونهايته، وهو يوم البعث والجزاء على الأعمال في مثل قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم:55-57][42].

والإشارة إلى هذه المعاني الثَّلاثةُ – على ما أَصَّلَ ابنُ القيِّم رحمه الله -، بافتتاح السورة بـ(ألَمّ).

والمتأمّلُ في هذه النَّماذجِ، يُدرك صدقَ ما استشفَّه ابنُ القيم رحمه الله من استفتاح السور بهذه الأحرف، وبإمكان المتردد أن يتابع التحقق مع (آل ألم) الباقية من قبيل: آل عمران ولقمان والسجدة وغيرها.

ثالثًا: استثمار ابنِ القيم في باب صفات الحروف في التَّفسير الإشاريّ

القسمُ الثَّاني المُكوّنُ للقيمة التَّعبيريَّة للحرف العربيّ هو: صفاتُ الحروف؛ وقد أسلفنا أنَّ المعاني التي نستشعرها من الأحرف، تتلاءمُ مع صفات الحرف قوَّةً وضعفًا، ولم يُخْلِ ابنُ القيّم رحمه الله هذه المسألةَ منِ استثمارٍ في بيان بعض الإشارات التَّفسيريَّة، ومن ذلك استفادته من صفتي المدِّ والقصر في بيان أثرهما في امتداد المعنى وقصره، وبيانه للتناسب بين معاني السُّور المفتتحة بحرف هجاء مفردٍ، وبين صفات ذلك الحرف، وبيان ذلك في المسألتين الآتيتين:

1- أثر امتداد الصوت وقصره في زيادة المعنى ونقصانه: وذَكَرَ ذلك عند كلامه عن الفرق بين النفي بـ(لن) والنفي بـ(لا)؛ وممَّا قرَّره في هذا الباب، أنَّ كليهما حرفُ نفيٍ، إلاَّ أنَّ النفي بـ(لا) ممتدٌّ متَّسعٌ، والذي يُؤذِنُ بهذا حرف المدِّ الذي تنتهي به (لا)؛ فالامتداد في الصوت يُقارنه امتداد في المعنى، فيما النفي بـ(لن) قصيرٌ مُنحبسٌ، والذي يَشِي بذلك النونُ الساكنة التي لا مدَّ فيها.

يقول رحمه الله مُجلِّيًا هذه القضيَّة: «ومن خواصِّها [أي (لن) النافية]؛ أنها تنفي ما قرب، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف "لا" [...]، وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها، يتفرَّس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه، كما يتعرَّف الصادق الفراسةِ صفاتَ الأرواح في الأجساد من قوالبها بفطنته [...]

وتأمل حرف "لا" كيف تجدها: لامًا بعدها ألف، يمتدُّ بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، و"لن" بعكس ذلك، فتأمله، فإنه معنىً بديع»[43].

ومن محاسن ابن القيّم رحمه الله في طرح أفكارِه؛ أنَّه لا يُسلِمُك إلى الفكرة مُجرَّدةً دون مِحَكٍّ لاختبارِ صدقها، بل لا ينفكُّ يعرضُ عليك شواهد صحَّتها التي يُمكن أن تُباشر تجريبها

بنفسك، والوقوف على مدى مُطابقتها بذاتك، ولعلّي أجتزئُ في هذا المقام بمثالين ممَّا ساقه لتجلية هذه المسألة وهما:

- **المثال الأوَّل:** قوله رحمه الله عند بيان الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[البقرة:95]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾[الجمعة:7]: «وانظر كيف جاء في أفصح الكلام كلام الله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾[الجمعة:7] بحرف "لا" في الموضع الذي اقترن به حرف الشرط بالفعل، فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عز وجل: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾[الجمعة:6] كأنه يقول: متى زعموا ذلك لوقتٍ من الأوقات أو زمنٍ من الأزمان، وقيل لهم: "تمنوا الموت"، فلا يتمنونه أبدًا. وحرف الشرط دلَّ على هذا المعنى، وحرف "لا" في الجواب بإزاء صيغة العموم، لاتِّساع معنى النفي فيها.

وقال في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾[البقرة:95]؛ فقصَّر من سَعَة النفي وقرَّب، لأن قبله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾[البقرة:94]؛ لأن "إن" و"كان" هنا ليست من صِيَغ العموم؛ لأن "كان" ليست بدالَّةٍ على حدث، وإنما هي داخلة على المبتدأ، والخبر عبارة عن مُضِيّ الزمان الذي كان فيه ذلك الحدث، فكأنه يقول ﷻ: إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة، وثبتت لكم في علم الله؛ فتمنوا الموت الآن، ثم قال في الجواب: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْنَهُ﴾، فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعًا»[44].

والَّذي ساقهُ ابنُ القيِّم رحمه الله في هذا المقامِ في غاية الدِّقَّةِ، ولك أن تُقارنَ بما ذكره الخطيبُ الإسكافيُّ رحمه الله (ت:420ه) في (درَّة التنزيل)[45]، أو حتَّى بما أورده مُعاصرهُ ابنُ الزُّبير الغرناطيُّ رحمه الله (ت:708ه) في (مِلاكِ التَّأويل)[46]، تعلم صدق ما قرَّرتُ.

- **المثال الثَّاني:** قوله رحمه الله في بيان الفرق بين قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[الأنعام:103]، وقوله سبحانه: ﴿لَن تَرَانِي﴾[الأعراف:143]: «وتأمل قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[الأنعام:103] كيف نفى فعل الإدراك بـ "لا" الدالة على طول النفي ودوامه، فإنه لا يُدْرَكُ أبدًا، وإن رآه المؤمنون فأبصارُهم لا تدركه، تعالى عن أن يحيط به مخلوق؛ وكيف نفى الرؤية بـ "لن" فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾[الأعراف:143]، لأن النفي بها لا يتأبَّد»[47].

وقد أوردَ ابنُ القيم رحمه الله هذا المثال في معرض الرَّدِّ على المُعتزلة المُنكرين رُؤيةَ الله ﷻ في الآخرة، واحتجاجهم على ذلك بقوله سبحانه: ﴿لَن تَرَانِي﴾[الأعراف:143]؛ إذ ممَّا قرَّره

في هذا الصَّدد، أنَّ النَّفي بـ(لن) لا يتأبَّدُ بل هو مُوقَّتٌ بالحياة الدنيا، بدليل قوله ﷻ: (وَإِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمُ اللَّهَ حَتَّى تَمُوتُوا)[48]، فجعل نفي الرؤية موقتًا بغاية هو الموت، ثمَّ تحصل بعدها للمؤمنين إكرامًا لهم، والذي أشعر بقصر النفي وحدِّه بحدٍّ هو حرف النون السَّاكن في آخر (لن) والذي ينحبس الصوت عنده ولا يمتدُّ.

فيما نفيُ الإدراك جاء بـ(لا) التي فيها حرف ألفٍ ممدودٍ، إشارةً إلى أن النفي ممتدٌّ مُؤبَّدٌ؛ إذ لا سبيل إلى إدراك ذات الله ﷻ والإحاطة بها ألبتَّة[49].

2- التَّناسبُ بين معاني السُّور المُفتَتَحة بحرف هجاء مفرَدٍ وبين صفات ذلك الحرف:
وممَّا بيَّنه ابنُ القيِّم رحمه الله في هذا: أنَّ السُّور المُفتَتَحةَ بحرفٍ ما؛ تجدُ أغلبَ كلماتها مبنيَّةً على ذلك الحرفِ، كما أنَّ المعاني التي تدور في السُّورة ممَّا يُناسبُ صفات ذلك الحرف المُفتَتَحَ به، وقد ضرب ابن القيم رحمه الله لشرح هذه القضيَّة مَثلين اثنين:

- **المثال الأول: سورة (ق)**، ومما قاله في هذا الصدد: «وتأمَّلْ السُّورَ التي اشتملتْ على الحروف المفرَدة، كيف تجدُ السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك (قَ) والسورة مبنيَّةٌ على الكلمات القافيَّة من ذِكر القرآن، وذكر الخَلْق، وتكرير القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي المَلَكَيْنِ قولَ العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقَرين، والإلقاء في جهنم، والتَّقَدُّم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر "القَبْل" مرتين، وتشقّق الأرض، وإلقاء الرَّواسي فيها، وبُسُوق النخل، والرِّزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرارُ القول والمُحَاورة.

وسرٌّ آخر: وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلوِّ والانفتاح»[50].

- **المثال الثَّاني: سُورة (ص)**: قال رحمه الله: «وإذا أردت زيادةَ إيضاح هذا؛ فتأمَّل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[ص:5]إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصُم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفَّارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيًا في شأن بَنيه وحَلِفه ليُغْوِيَنَّهم

أجمعين، إلا أهلَ الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيبُ الفَطِن: هل يليق بهذه السورة غير (ص)، وبسورة (ق) غير حَرْفها؟ وهذه قطرةٌ من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم»[51].

أيْ أنّ سُورَة (ص)، لمَّا استُفتِحت بهذا الحرف؛ كانت المعاني التي تدورُ عليها السُّورةُ من الكلمات الصَّاديَّة، ومن أبرزها (الخصومة)؛ إذ في السُّورة ذكرُ خصوماتٍ متعددة كما بيَّن ابنُ القيِّم رحمه الله، ولعلَّ أبا السُّعود رحمه الله (ت:982هـ) ألمح إلى هذا المعنى أيضًا، ولكن بشكلٍ آخرَ، وذلك حين ذكر وجه قراءة (صَ = صَادِ) بكسر الدَّال. قال رحمه الله: «وقيل هو في قراءةِ الكسر أمرٌ من المصاداةِ وهي: المعارضةُ والمقابلةُ، ومنها الصَّدى الذي ينعكسُ من الأجسامِ الصَّلبةِ بمقابلة الصَّوتِ»[52]. والخصوماتُ لا بدَّ فيها من متعارضَيْنِ متقابلَيْنِ.

كما أنَّها تقتضي في الأغلب اللَّغط والتَّشويش، والصَّخب ورفع الصَّوت، وذلك مناسبٌ للاِستعلاء والصَّفير الذي في الصَّاد، فصفاتها كذلك دالَّةٌ على معانيها.

خاتمةٌ

لا ريبَ أنَّ المُتمعِّن في القضايا الثَّلاث الَّتي أدرنا عليها هذا المقال (القيمة التعبيريَّة للحرف، والتَّفسير الإشاريُّ، وابن القيِّم رحمه الله وكيفية استثماره لهذه القيمة في التفسير الإشاريّ)؛ ستتبدَّى له ملامحُ نتائج يُمكنُ صياغتها على النَّحو الآتي:

1- المقصودُ بالقيمة التَّعبيريَّة للحرف العربيّ: التَّناسبُ بين مخرجِ الحرف وصفاته اللَّازمة والعارضة، وبين المعنى الذي يُؤدِّيه الحرفُ إفرادًا وتركيبًا.

2- التَّفسيرُ الإشاريُّ هو: تأويل القرآن بغير ظاهرِه، لإشارةٍ خفيَّةٍ تظهر لأرباب السُّلوك والتصوف، ويُمكنُ الجمعُ بينها وبين الظَّاهر المُرَادِ.

3- للتَّفسير الإشاريّ أصلٌ في السُّنَّة النَّبويَّة وعمل السَّلفِ الصَّالحين، وقد اشترط أهل العلم لقبوله أربعة شُروطٍ هي: أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه، وأن لا يعود على المعنى الظاهر للآية بالإبطال، وأن يكون في اللَّفظ إشعارٌ به، وأن لا يُدَّعَى أنَّه المعنى المُرَادُ دون ظاهرِ النَّظم.

4- ابنُ قيّمِ الجوزيَّة رحمه الله (ت:751ه) من أجَلِّ علماء القرن الثَّامن الهجريِّ الجامعين بين المعرفة بالتَّفسير، وبإشارات أهل السُّلوك والتَّعبير، بشهادة كثيرٍ من مُتَرجِميه ممَّن عاصَرَهُ أو جاء بعدَهُ.

5- استثمر ابنُ القيّم رحمه الله – للوصول إلى بعض الإشارات التَّفسيريَّة – في القيمة التَّعبيريَّة للحرف العربيِّ، وقد استعمل ثلاثةً من العناصر المكوِّنة لهذه القيمة وهي: مخارج الحروف، وصفات الحروف الذَّاتيَّة (الاستعلاء والجهر والانفتاح ...)، وصفات الحروف العارضة (المدُّ والقصر).

6- أحال ابنُ القيّم رحمه الله في تفسيره الإشاريِّ على عناصر لغويَّة منطقيَّة، والأهمُّ أنَّها أمور معياريَّةٌ يُمكنُ قياسُها والتَّحقُّقُ منها، على خلاف كلام كثيرٍ من أهل التفسير الإشاريِّ فإنَّها ادِّعاءاتٌ مُرسَلَةٌ غيرُ مُنضبطةٍ.

7- إذا طبَّقنا الشُّروطَ التي وضعها أهل الاختصاص لقبول التَّفسير الإشاريِّ؛ فإنَّا واجِدُون أنَّ ابنَ القيّمِ رحمه الله قد وُفِّقَ إلى الصَّوابِ في أغلبِ ما فسَّر.

هذا ورحم الله ابنَ قيّمِ الجوزيَّة وأعلى درجته في المهديين، وجزاه عنَّا خيرًا وسائر علماء المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

هوامش البحث:

[1] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج1، ص10.

[2] يُنظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص155-162. و: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص200 وما بعدها.

[3] صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص142.

[4] »قَالَ اللحياني: أَصْقَبَتِ الدارُ وأَسْقَبَتْ أَي: قَرُبَتْ [...] وَقد أصقبَكَ الصّيْدُ فارْمِهِ، أَي دَنا مِنْك وأمكنك رميُهُ« الأزهري، تهذيب اللغة، ج8، ص296.

[5] ابن جني، الخصائص، ج2، ص148.

[6] يُنظر: أحمد بن محمد القسطلاني، اللآلئ السنيَّة شرح المقدِّمة الجزريَّة، ص47. و: عبد الرزاق موسى، الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية، ص57.

[7] ابن جني، الخصائص، ج2، ص159-160.

[8] قال الذَّهبيُّ رحمه الله في(السير) في ترجمة الإمام مالكٍ رحمه الله: «وَلَكِنَّ هَذَا الإِمَامَ الَّذِي هُوَ النَّجمُ الهَادِي، قَدْ أَنْصَفَ وَقَالَ قَوْلاً فَصْلاً، حَيْثُ يَقُوْلُ: كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه وَيُتْرَكُ، إِلاَّ صَاحِبَ هَذَا القَبْرِ ﷺ» ج8، ص93.

[9] يُنظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص261. و: الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص78. و: عبد الله الجديع، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ص374.

[10] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص227.

[11] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج23، ص149. و: البغوي، معالم التنزيل، ج5، ص19-20.

[12] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج13، ص242.

[13] يُنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص465.

[14] ابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص123.

[15] ابن جرير، جامع البيان، ج24، ص561.

[16] البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)، حديث 4970. ج6، ص179.

[17] يُنظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص263.

[18] القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج6، ص396.

[19] ابن حجر، فتح الباري، ج8، ص736.

[20] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج13، ص245.

[21] ابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص124.

[22] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص279-280.

[23] الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص81.

[24] يُنظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص280.

[25] يُنظر: أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، ج3، ص177.

[26] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج20، ص63.

[27] يُنظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص280.

[28] الألوسي، روح المعاني، ج1، ص282.

[29] يُنظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج5، ص137.

[30] يُنظر: بكر بن عبد الله أبو زيد، ابن القيم حياته آثاره موارده، ص23 وما يليها.
[31] ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص270.
[32] الذهبي، المعجم المختص بالمحدِّثين، ص269.
[33] محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2، ص143-144.
[34] محمد بن علي الداوودي، طبقات المفسرين، ج2، ص94.
[35] ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ج5، ص171.
[36] المصدر نفسه، ج5، ص173.
[37] يُنظر: محمد أويس الندوي، التفسير القيم لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي.
[38] يُنظر: الضوء المنير على التفسير، جمعه من كتب ابن القيم رحمه الله: علي الحمد المحمد الصالحي.
[39] يُنظر: بدائع التفسير؛ الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، جمع يسري السيد محمد.
[40] ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج3، ص1119-1120.
[41] يُنظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج1، ص68 وما بعدها.
[42] يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص40-41.
[43] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص166.
[44] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص167.
[45] يُنظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ج1، ص267-268.
[46] ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من من آي التنزيل، ج1، ص47-48.
[47] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص168.
[48] ضياء الدين المقدسي، الأحاديث المختارة، حديث رقم 321، ج8، ص264.
[49] يُنظر: عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم، ص54-55.
[50] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج3، ص1120-1121.
[51] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج3، ص1121.
[52] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج7، ص213.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الزبير الغرناطي (ت:708ه)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق عبد الغني الفاسي، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت.
2- ابن حجر العسقلاني (ت:852ه)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ط2، دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1392ه-1972م.
3- ابن حجر العسقلاني (ت:852ه)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح محب الدين الخطيب، دط، دار المعرفة، لبنان، 1379ه-1959م.

4- ابن رجب الحنبلي (ت:795ه)، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، ط1، مكتبة العبيكان، السعودية، 1425ه-2005م.
5- ابن قيم الجوزية (ت:751ه)، التبيان في أيمان القرآن، تحقيق عبد الله البطاطي، ط1، دار عالم الفوائد، مكة، 1429ه-2009م.
6- ابن قيم الجوزية (ت:751ه)، بدائع الفوائد، تحقيق علي العمران، ط1، دار عالم الفوائد، مكة، 1425ه-2005م.
7- أبو الفتح ابن جني (ت:392ه)، الخصائص، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دت.
8- أبو منصور الأزهري (ت:370ه)، تهذيب اللغة، تحقيق محمد مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 2001م.
9- أحمد بن تيمية (ت:728ه)، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم، دط، مجمع الملك فهد، السعودية، 1416ه-1995م.
10- أحمد بن محمد القسطلاني (ت:923ه)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط7، المطبعة الأميرية الكبرى، مصر، 1323ه-1903م.
11- أحمد بن محمد القسطلاني، اللآلئ السنيَّة شرح المقدِّمة الجزريَّة، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1428ه-2007م.
12- أحمد بن محمد أبو جعفر النحاس (ت:338ه)، إعراب القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1421ه-2001م.
13- إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1408ه-1988م.
14-إسماعيل بن عمر بن كثير (ت:774ه)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، ط2، دار طيبة، السعودية، 1420ه-1999م.
15- الحسين بن مسعود البغوي (ت:510ه)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق مجموعة من المحققين، ط4، دار طيبة، السعودية، 1417ه-1997م.
16- الخطيب الإسكافي (ت:420ه)، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق مصطفى آيدن، ط1، جامعة أم القرى، مكة، 1422ه-2001م.
17- بدر الدين الزركشي (794ه)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتاب العربي، مصر، 1376ه-1957م.
18- بكر بن عبد الله أبو زيد، ابن قيم الجوزية حياته آثاره موارده، ط2، دار العاصمة، السعودية، 1423ه-2003م.
19- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1394ه-1974م.

20- شمس الدين الذهبي (ت:748ه)، المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق محمد الهيلة، ط1، مكتبة الصديق، الطائف، 1408ه-1988م.
21- شمس الدين الذهبي (ت:748ه)، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين، ط3، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1405ه-1985م.
22- شهاب الدين الألوسي (ت:1270ه)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عطية، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1415ه-1995م.
23- صبحي الصالح (ت:1407ه=1987م)، دراسات في فقه اللغة، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1379ه-1960م.
24- الأحاديث المختارة، ضياء الدين المقدسي (ت:643ه)، تحقيق عبد الملك دهيش، ط3، دار خضر، لبنان، 1420ه-2000م.
25- عبد الرزاق موسى، الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية، ط2، دار ابن القيم، السعودية، 1428ه-2007م.
26- عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم، ط1، دار الرائد العربي، لبنان، 1402ه-1982م.
27- عبد الله الجديع، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ط1، مركز البحوث الإسلامية، بريطانيا، 1422ه-2001م.
28- علي الحمد المحمد الصالحي، الضوء المنير على التفسير، جمعه من كتب ابن القيم رحمه الله، ط1، مؤسسة النور للطباعة والتجليد، السعودية، 1415ه-1995م.
29- محمد الطاهر بن عاشور (ت:1393ه=1973م)، التحرير والتنوير، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
30- محمد أويس الندوي، التفسير القيم لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان، 1423ه-2004م.
31- محمد بن إسماعيل البخاري (ت:256ه)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري،، تحقيق محمد زهير الناصر، ط1، دار طوق النجاة، السعودية، 1422ه-2002م.
32- محمد بن جرير الطبري (ت:310ه)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420ه-2000م.
33- محمد بن علي الداوودي (ت:945ه)، طبقات المفسرين، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت.
34- محمد بن علي الشوكاني (ت:1250ه)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دط، دار المعرفة، لبنان، دت.
35-محمد بن محمد أبو السعود العمادي (ت:982ه)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

36- محمد حسين الذهبي (ت:1398هـ=1978م)، التفسير والمفسرون، دط، دار وهبة، مصر، دت.
37- محمد عبد العظيم الزرقاني (ت:1367هـ=1947م)، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، دت.
38- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، دار الفكر المعاصر، سوريا، 1418هـ-1998م.
39- يسري السيد محمد، بدائع التفسير؛ الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، مراجعة وتنسيق صالح أحمد الشامي، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1417هـ-2007م.